

مجلدات في الأدب الفرنسي الحديث

## تطور الحركة الأدبية

في فرنسا الحديثة<sup>(١)</sup>

## عبادة الذات

موريس باريس M. BARRÈS

١٨٦٢ - ١٩٢٣

للاستاذ خليل هندأوى

—•••••—

يقول « بورجيه » في مقدمته لرواية ( التليذ ) إن الإنسان أصبح اليوم « عديمياً لطيفاً » وقد استحال آلة فساد ناعمة اللبس ، وبوشك أن يكون كل منا هذا الإنسان . وهذه الآلة قد خلقها شك « رينان » ، ولكن شك « رينان » لم يكن شكاً لثيماً ولا متشاكماً . وإنما كان شك « ستندال » و « نيتشه » هو الشك الأكثر طغياناً . على أن تأثير « ستندال » لم يبلغ أشده إلا في مطلع عام ١٨٨٠ ، وبين بورجيه ومن يتبعها من الأنصار معجبون فيه قدرته على التحليل النفسي ، وينذهلون بهذه الماطفة الداتية التي تهيم على تفكيره . « فالماقل عنده ليس إلا من يعمل كمثل عمله ، يقتس في هذه الحياة عن لذة عقلية صافية » ولم يعط ستندال مذهبه تحليلاً فلسفياً ولذلك لبث تأثيره ضيقاً ، بعكس نيتشه الذي أعطى مذهبه قوة وتأثيراً . فنيتشه يتسامى بقوة ويهاجم شريعة العبيد التي أخذت بعد انتشار المسيحية تستعبد الناس . فالهبة والمساواة والأخوة كلمات جبن وأوهام باطلة تجرب باطلاً أن تحتال على أنظمة الحياة وتتلاعب بها . ونظام مذهبه المقاتلة وسحق الضعيف وظفر القوى الذي يستحيل بعد خروجه من المركة إنساناً كاملاً وسيداً . يقول زرادشت : « لقد مات الإله — الإله المسيحي . إنني أعلمكم الإنسان الكامل ، الإنسان هو شيء يجب أن يفوق نفسه » وقد ذاع هذا الإنسان الكامل في الطبقات المثقفة خلال سنة ١٩٠٠ وفي هذا التاريخ

(١) عن الأستاذ « دانيال مورني »

نقلت آثاره وترجمت . وموريس باريس — في رواياته الأولى — حاول أن يكسو هذه الداتية الخارقة رداءً فنياً ، فكتب عدة روايات وأعطاهما عنوان « مقالات في عبادة الذات » يتخللها تحليل بعيد يقذف بالنفس إلى عالم العزلة « وإنما يجب أن نحس أكثر ما يمكن عند ما نحلل أكثر ما يمكن » قد يكون هذا ، ولكن ينبغي عبادته ، لأنه هو الذي يمنحنا معرفة أنفسنا معرفة صحيحة ، ويجعلنا نعرف « ذاتاً » أفتى معنى وأكثر تنوعاً وأكثر تأثيراً من ذات منظمة مأمورة . ألا فلنقدس اختلاط قوى النفس ، فهذه هي اللعبة ، أو معرفة هذه اللعبة التي هي ملح الحياة ، أو على الأقل التمرين البسيط للعقل الذي ليس بخداع

وفي هذا كله شك ؛ وإن ذات « باريس » كما يقول أناطول فرانس مزيج من اضطراب وحيرة واختلاط . وإن من العمل الظاهر العمل على احتوائها . إن تهكماً دائماً يحيط بها ويألفها . على أن في عبادة الذات شيئاً آخر ...

وقد يخاطب « باريس » فئة مثقفة نائمة في الثقافة الإنسانية ، ويجد أن تعليل ( الذات ) المصنوعة في العزلة البعيدة عن الكتب إنما هو راحته في هذا التيه : « إن قوة العقل والإحساس تمت وحدها بهؤلاء الذين يعيشون بانصال صادق مع أنفسهم ، وهذا هو مذهب الشعراء والمتصوفين . وهذا وحده يستطيع أن يلقينا خارج دائرة الشك ، ويقودنا إلى مثل أعلى . إننا بالانطلاق من هذه الذات الحالية نصبح رجالاً ساعين هذا المجتمع ... رجالاً لا يتكئون » وقد تكون هذه الذات شديدة الاختلاف عن الإنسان الكامل ( لنيتشه ) الذي لا نظام له إلا السكال المتكبر الأناني ؛ على أن امتحان الذات ينبغي أن يرافقه شيء من الامتحان والبلاء . وذواتنا محدودة بأشياء وراثية . ومعرفة الذات تنتهي دائماً بأن تخلق لنفسها فضيلة ومراجعات جديدة ... وقد جهد ( باريس ) عند ما تطور أن تكون هذه الفضيلة خلل آثاره الشكوكية ، وفي هذه الآثار ما يرفع من الشك إلى الإيمان ومن التعليل إلى التأليف ؛ والتعليل ليس في كل صورة مبعثاً للكسل ؛ هو ينقصه جهد يُقاد إما بمنطق مدرسي جاف ، أو بمنطق أسمي لشجرة تحترق النور وتذهب إلى غايتها الباطنية « إنني لن أذهب باستقامة إلى الحقيقة كالسهم يريد هدفه . ففي أكثر الأحيان يخطئ

السهم المرمى . ولكن تعليل الذات بأناة ويقين يقود إلى هذه النتيجة حيث — الذات — مهما كانت مختلفة ودقيقة فهي ليست بمختلفة ولا بدقيقة إلا لأنها ليست إلا مظهراً . « الذات — خاضعة للتعليل — بقليل من الحد تفنى ولا يتبقى إلا المجتمع الذى هو منه نتيجة ثانية . وبرغم الهوان والتواضع ، فإن فكرتى التى تعاطمت من قبل لكونها حرة تصل إلى أن تعلن وتثبت اتصالها بهذه الأرض وبهؤلاء الموقى الذين — قبيل ولادى — قد سيطروا عليها فى أشكالها وألوانها

### المجتمع خصم للفرد

الفلاسفة والمؤرخون والنقاد

إن خير المؤلفين — فى الفئة الواقعية — الناشئة للحقيقة لم يكونوا ذوى نزعة فردية . ولم تقدم دراساتهم إلى نتائج كنتائج نيتشه ، فالمجتمعات عندهم لا يقودها إلى الأمام رؤساء ولا رجال عمقريه ؛ ولكن المجتمعات تصنع نفسها بنفسها وتزدود عن نفسها بنفسها . لا بالعقل وحده لأنه قد يكون خاطئاً ، ولا بالإرادة وقد تكون عمياء . ولكن بفريرة حية توفق الحياة الاجتماعية بوسائل الحياة ، وهى تنشأ من التقاليد ، وهذه تستطيع بل يبنى أن تتطور وأن تتحور ، ولكن لا يمكن حذفها ولا قلبها دفعة واحدة كما أنه لا يمكن تبديل مناخ ولا صفة أرض ولا أخلاق ذرية ما . وإنما يجب أن نفهم هذه التقاليد عند ما نرغب أن نفهم حياة شعب ما وهذه خلاصة آراء المؤرخين فى ذلك العصر ، ولا سيما (تين) الذى حاول أن يطبق هذه الآراء فى كتابه (أصل فرنسا الحديثة) ففرنسا الحديثة يبنى أن تكون وليدة فرنسا النابرية ، وهذه كانت بائسة ذليلة ، ولكن يجب إيجاد علاج لها ، وهذا العلاج إنما يستمد من تقاليدها وعاداتها لا من أفكار مجردة . إن فلاسفة القرن الثامن عشر قد أوجدوا (الخير لذاته) لكل الناس فى أى قطر من الأقطار فلم يفيض قولهم هذا إلا إلى نظم خيالية ، فالمداهب المجردة لم تكن إلا كلمات عاجزة ، إنها لم تولد الثورة ولكنها ولدت مملكة الدعر والرعب الأعمى ، وفلاسفة القرن الثامن عشر وزملائهم الناثرون لم يحسنوا معرفة نظام الحياة الاجتماعية وهو النابرة من أجل البقاء !

هناك فلاسفة قد أخطأوا فى تفكيرهم فى المجتمعات على نسق تفكيرهم فى العلوم المنطقية ، إذ فى الحقيقة ليس هناك أفراد للعالم النفسانى والروائى ، ولا يبنى فيهم أن تتكلم عن أثر البيئة فيهم ، لأنهم ليسوا إلا جزءاً من البيئة ، أو نقطة من مذهب هو جزء من القوات المؤثرة لا يمكن حله إلا بحل المذهب كله

يعلى (جاريال تارو) فى كتابه (شرائع التقليد) و (الرأى والجماعات) بأن منطق الجماعات لا يلتقى مع منطق الفلاسفة . — فالتناس لا يفكرون ولكنهم يقلدون ؛ وهم لا يتحققون ولكن يتبع بعضهم بعضاً ؛ وهم يتشابهون

فالعالم (البيولوجى) لا يدرس حركة القلب كما يدرس الرياضى حركة كتلة ثابتة على حالة واحدة . كذلك الحوادث الاجتماعية لها خصائص خاصة ، وطبيعتها تختلف بالعمق عن حوادث الحياة الفردية المدروسة عند علماء النفس إذ ليست كلها مجموعة وحدات ، فالمجتمع باستطاعته أن يحلل الفرد ، ولكن الفرد لا يحلل المجتمع

(يتبع)

منيل هنري

## معجزة أبي العلاء هى كتاب الفصول والغايات

طرفة من روائع الأدب العربى فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قيل فيه إن المعرى عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة وصدر منذ أسبوع

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محرم حسن زمانى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة

ويباع فى جميع المكتاتب الشهيرة